إحكام الدلالة
على تحرير
الرسالة
القشيرية

للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري
المتوفى بنيسابور ٤٦٥هـ

شرحه وحرره
شيخ الإسلام قاضي القضاة أبو يحيى زكريا بن محمد الأنصاري
المتوفى بالقاهرة ٩٢٦هـ

المجلد الأول

حققه وعلق عليه
عبد الجليل العطا
البكري

دار النعمان للعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لوليّه والصّلاة على نبيّه

جميع الحقوق محفوظة

الطّبعة الأولى

رمضان ١٤٢٠ هـ
كانون الثاني ٢٠٠٠ م

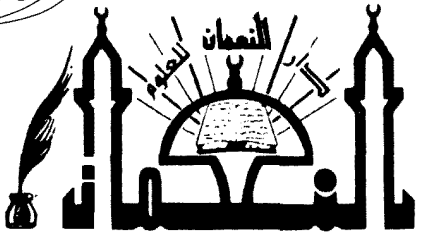

دار النعمان للعلوم : دمشق - حلبوني - هـ ٢٢٤٩١٠٧ - ص.ب ٣٠١٥٦

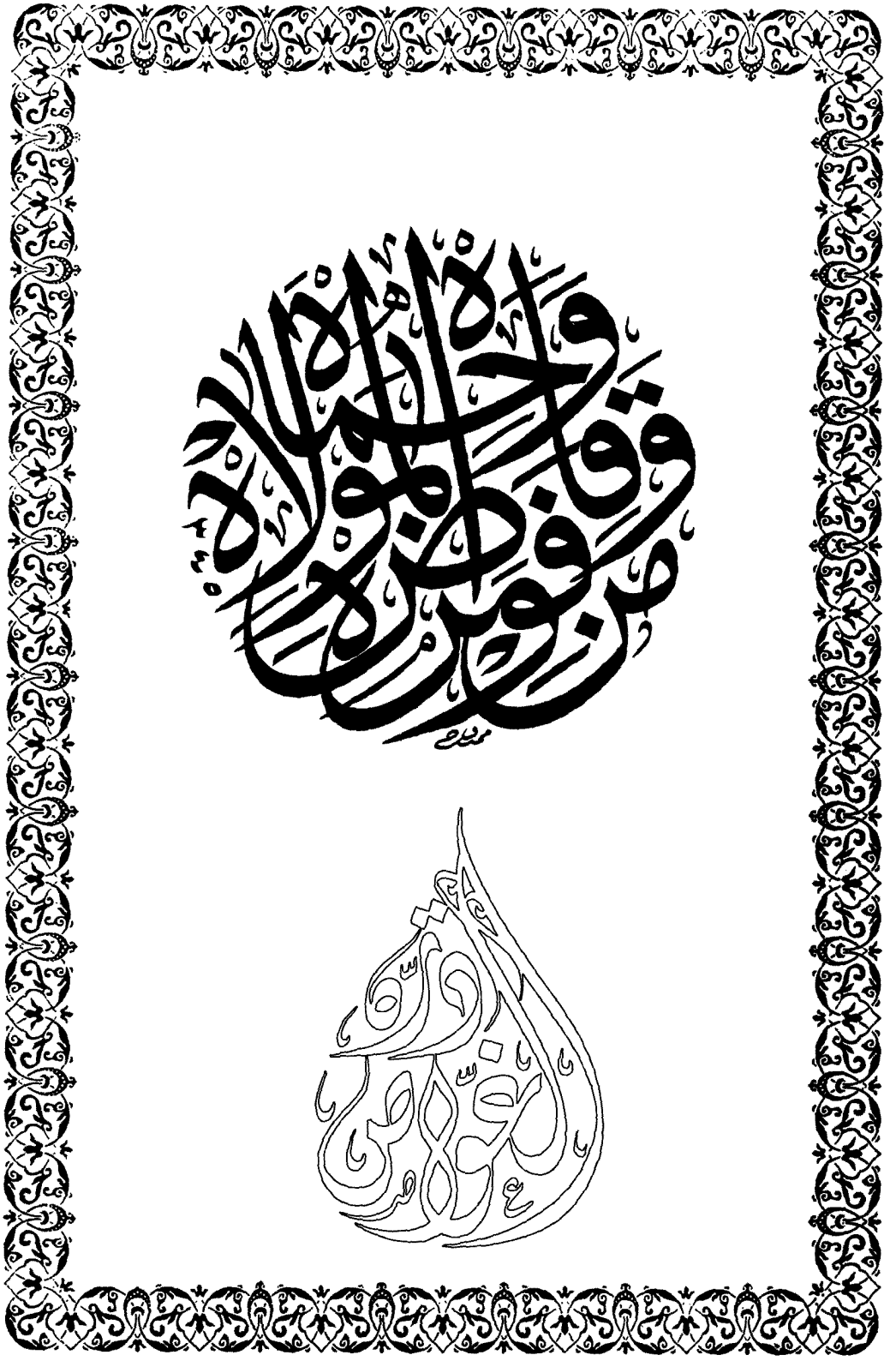

الإهـــداء

إلى الصُّوفيَّةِ الَّذينَ جُمِعَت هَذِهِ «الرِّسَالَةُ» وَعُلِّقَتْ لِتُوَجَّهَ إِلَيهِمْ
اقتِدَاءً، وَتَأَسِّيًا، وَتَذكِيرًا

إلى أَحبَابِ الصُّوفيَّةِ الَّذينَ يَرغَبُونَ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلَى أَحوَالِهِمْ
تَثبِيتًا، وَتَأنِيسًا، وَسُلوَانًا

إلى أَهلِ الإنصَافِ وَالحِيَادِ الَّذينَ تَرَيَّثُوا فَلَمْ يَحْكُمُوا بِهَوىً أَو عَصَبِيَّةٍ
تَجلِيَةً، وَكَشفًا، وَتِبيَانًا

إلى أَعدَاءِ الصُّوفيَّةِ الَّذينَ يَبحَثُونَ عَنْ مُسَوِّغٍ لِعِدَائِهِمْ
تَنوِيرًا، وَتَبصِرَةً، وَإِيضَاحًا

أُقَدِّمُ هَذَا السِّفْرَ النَّفِيسَ

مُستَقِيمًا.. مُتَجَرِّدًا

مُتَوَازِنًا.. مُعْتَدِلًا

مُحِقًّا.. غَيرَ زَائِغٍ

مقتطفات من تقريظ إمام من أئمة العصر

الشيخ حسنين محمد مخلوف رحمه الله تعالىٰ

. . . والتصوفُ الإسلاميُّ تربيةٌ علميةٌ وعَمَلية للنفوس ، وعلاجٌ لأمراض القلوب ، وغَرْسٌ للفضائل ، واقتلاعٌ للرذائل ، وقمعٌ للشهوات ، وتدريبٌ علىٰ الصبر والرضا والطاعات .

وهو مجاهدة للنفوس ومكابدةٌ لنزعاتها ، ومحاسبة دقيقة لها علىٰ أعمالها وتُروكها ، وحفظٌ للقلوب عن طوارق الغَفَلات وهواجس الخطرات ، وانقطاعٌ عما يعوق السالك في سَيْره إلىٰ الله ، وزهادةٌ في كلِّ ما يُلهي عن ذكر الله ويَعلَقُ بالقلوب سواه .

وهو معرفة لله ويقين ، وتوحيدٌ لله وتمجيد ، وتوجُّه إلىٰ الله وإقبالٌ عليه ، وإعراضٌ عما سواه ، وعكوف علىٰ عبادته وطاعته ، ووقوف عند حدوده ، وتعبُّدٌ بشريعته ، وتعرُّضٌ لنفحاته وهِباتِه التي يَخصُّ بها أولياءه وأحبابه ؛ فضلاً منه وكرما .

وجملةُ القول فيه - قبلَ تدوينه كفنٌّ إسلاميٌّ وبعْدَه - أنَّه عِلمٌ وحكمة ، وتبصرة وهداية ، وتربية وتهذيب ، وعلاجٌ ووقاية ، وتقوىٰ واستقامة ، وصبرٌ وجهاد ، وفِرارٌ من فتنة الدنيا وزينتِها وابتعاد .

وقد أشار إلىٰ طَرَفٍ من ذلك أبو محمد الجُرَيري بقوله في وصفه :

إنَّه الدخولُ في كلِّ خُلُق سَنِيّ ، والخروجُ من كلِّ خُلُق دَنِيّ .

وقولِهِ : التصوُّفُ مراقبةُ الأحوال ولزومُ الأدب .

والأدَبُ - كما أشار إليه **القُشَيريُّ** في « **الرسالة** » - جِماعُ خصال الخير ؛ وحاصلُها التفقُّه في الدِّين ، والزهد في الدُّنيا ، والمعرفةُ بما لله عَزَّ وجلَّ من حقوق .

وعن أبي نصر السَّرَّاج : الناسُ في الأدب علىٰ ثلاث طبقات :

أما **أهلُ الدنيا** فأكثرُ آدابهم الفصاحة والبلاغة ، وحفظُ العلوم والمنظوم .

وأما أهلُ الدين فأكثرُ آدابهم في رياضة النفوس ، وتأديبِ الجوارح ، وحفظِ الحدود ، وتركِ الشهوات .

وأما أهلُ الخصوصية (يعني الصوفية) فأكثرُ آدابهم في طهارة القلوب ومراعاةِ الأسرار ، والوفاءِ بالعهود (التي بين العبد وربّه) ، وحفظِ الوقت ، وقلّةِ الالتفات إلىٰ الخواطر ، وحُسنِ الأدب في مواقف الطلب ، وأوقاتِ الحضور ومقاماتِ القُرْب . انتهىٰ .

فالتصوُّفُ ـ كما ترىٰ ـ لُبُّ الشريعة ورُوحُها ، وثمرتُها وحكمتُها . وقد قال سيِّد الطائفة الجُنَيد : عِلمُنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسنَّة ، ومَن لم يحفظ القرآن ؛ ولم يكتب الحديث . . لا يُقتَدَىٰ به في هذا الأمر ، والطُّرُقُ كلُّها مسدودةٌ علىٰ الخلق إلاَّ علىٰ مَن اقتفَى أثرَ الرسول ﷺ .

وقد اختَصَّ هذا النوعُ من العلم الشرعي في عصر التدوين ـ كما أشار إليه ابن خلدون في « مقدمته » ـ باسم « التصوف » ؛ أو « عِلْم الحقيقة » ، كما اختَصَّ النوعُ الآخَرُ منه الخاصُّ بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم « الفِقْهِ » ؛ أو « عِلْم الشريعة » .

وقال بعضُ الصوفيَّة في بيان ترابط هذين العِلمين وتعاونهما في تكوين شخصية المسلم الكامل . . ظاهراً وباطناً ؛ حِسّاً ومعنىً ؛ مادَّةً ورُوحاً : (حقيقةٌ بلا شريعة باطلة ، وشريعةٌ بلا حقيقة عاطلة) . فهما للمسلم كجناحَيْ الطائر ، لا يَستقلُّ بأحدهما دون الآخر .

ذلك هو **التصوُّفُ النقيُّ** من الشوائب ، الذي لم يخالطه زَيغٌ ولا شطط ، ولا جهل ولا ابتداع . وهو **تصوُّفُ العلماءِ والنُّسّاكِ** العارفين بالله ، القائمين علىٰ حدوده ، المتمسِّكين بشريعته[1] .

ولهؤلاء الأئمة وأضرابهم كلامٌ جيِّد رصين ، وحِكَم شافية ، ومؤلفاتٌ قيِّمة في الأصول والفروع ، والأعمال النفسية وأحوال القلوب وخطراتِها ، وأخطارِها وعلاجها ، وفي الآداب والأذواق والمواجيد ، والأحوالِ النفسية

---

(١) ثمَّ سرد ههنا عدداً من أعلام التصوُّف جلُّهم من أعيان هذا الكتاب .

والمجاهدات ، علىٰ تشدُّدٍ من بعضهم في السلوك وتفاوتٍ حسبَ تفاوتِ أقدارهم في العلم والذوق والعِرفان .

وجميعُهم إنَّما يَصدُرون في ذلك عن كتاب الله وهَدْي النبوَّة ، وما رُوي عن العارفين من أئمة الإسلام من أقوال وأعمال وأحوال .

هذا هو **التصوُّف الصادق** الذي ملأ سَمْعَ الدنيا وأعيُنَها قبلَ عصرِ التدوين وبعْدَه ، وهؤلاء وأمثالُهم هم الصوفية حقّاً ، الصادقون قولاً وفعلاً .

وهناك **تصوُّف زائف** . . انتحله قديماً فِئامٌ من الناس ، أُشرِبُوا تعاليمَ الباطنية الحُلُوليّة ، وتدثّروا بدثار الصوفية ؛ اجتذاباً للعامّة ، وتغريراً وخِداعاً وتلبيساً ، ودَسُّوا في التصوف إلحادَهم ومقالاتِهم الشنيعةَ في الدين . . إضلالاً للمسلمين ، هؤلاء ليسوا من الصوفيّة ولا التصوُّف في شيء ، ويُنكرهم كلَّ الإنكار أولئِك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابُهم ، ويحسبونهم أدعياء في نَسَبهِ مُزَوِّرين ، وزنادقةً مُلحِدين .

وقد كشَفَ خبثَهم ، وفنّدَ مزاعمَهم ، وأبطلَ تصوُّفَهم كثيرٌ من الأئمة .

وهناك آخرون انتسبوا إلىٰ الصوفية زُوراً ، واتخذوها سِمَةً وحِرْفة ، وتوارثوا فيما بينهم بِدَعاً وشعاراتٍ زائفة ، وتقاليد منكرة ، يَبرأ منها التصوُّفُ وأعلامُه من أولي العلم واليقين .

وهؤلاء كذلك أدعياءُ في التصوف ، دُخَلاء في الصوفية ، مبتدِعون آثمون .

وإحقاقاً للحق ، وإنصافاً للصادقين : يجب أن لا يُحمّلوا أوزارَ أولئك الأدعياء المبطلين ، وأن لا يُطلَق القول في ذمِّ التصوُّف والصوفيّة ، بل يُعطَىٰ كلُّ فريق حقّه من المدح أو الذم ، ومن الترغيب أو التحذير ، دون تعصُّب أو تحيُّف .

كتبه

حسنين محمد مخلوف[1]

مفتي الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء

---

(١) من تقريظ لكتاب « رسالة المسترشدين » .

تقديم أستاذنا الجليل فضيلة العلامة
الشيخ عبد الرزاق الحلبي حفظه الله وأمتع بحياته[1] .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحدَه ، والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ مَن لا نبيَّ بعدَه .

وبعد ؛ فإن « الرسالة القشيرية » من أفضل كتب التصوُّف الحقيقي ، إذ أنَّ هذا الكتاب قد جمع تراجم رجال الصوفية ، وما فتح الله عليهم من الإشراقات الإلٰهيَّة ، وما فيه من أبواب العلم والآداب والأخلاق العليَّة والصفات الحميدة ، مع ما بين من آداب المريد مع الشيوخ . .

وإن الأخ الكريم الشيخ عبد الجليل العطا قد أطلعني علىٰ مقدِّمته لهذا الكتاب النفيس ؛ مع ما صنعه من ترتيب في شرح شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاريِّ ، ونرجو الله أن ينفع به العُبَّاد وطُلَّاب العلم . . .

فجزىٰ الله الشيخ عبد الجليل الذي بذل الجهد المشكور لإخراج هذا الكتاب مع شرحه ؛ ليستفيد منه الذين يريدون أن ينهلوا من المعين الصافي ، والتصوُّف الذي طبق فيه تعاليم القرآن والسنَّة ، ولم يتجاوز إلىٰ الشطحات التي تظهر من بعض المتصوفين .

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

١٩/ رجب/ ١٤٢٠

كتبه

عبد الرزاق الحلبي

---

(١) شرَّفنا الله تعالىٰ بقراءة متن هذا الكتاب علىٰ فضيلته بعد فجر كلَّ يوم في أواسط الثمانينيات في مسجد بني أمية الكبير بدمشق ؛ جزاه الله عنا كلَّ خير

كلمة فضيلة الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي[1]

حفظه الله وأمتع بحياته

أيها الأخوة ؛ هذه الدروس هي امتداد لدروسٍ كان يلقيها والدي في هذا الوقت ، فأنا أُفضِّل أن نسير علىٰ النهج الذي كان يسير عليه هو . . ولذا رأيت أن نستبدل كتاباً[2] من أهمِّ وأوثق وأقرب الكتب إلىٰ محبَّة والدي رحمه الله تعالىٰ .

من أحبِّ الكتب إلىٰ والدي التي كان يقرؤها كثيراً لنفسه ويقرؤُها مع لفيفٍ من الإخوة كتاب « الرسالة القشيرية » للإمام القشيري . . كان شديد الشغف بهذا الكتاب ، ودرّسه أكثر من مرَّة ، فرأيت بأنَّ من الأفضل أن نعودِ إلىٰ هذا الكتاب الذي أكاد أقول (كان الوالد يتعشَّقه) .

الإمام القشيري . . من أعيان علماء القرن الرابع والخامس . . كان فقيهاً ، شافعياً ، لامعاً ، عالماً من أبرز علماء الكلام ، أصوليّاً ، محدِّثاً ، كان ملازماً للإمام البيهقي .

إذن أبو القاسم القشيريُّ رجل جمع بين علوم الشريعة والحقيقة (علوم الشريعة . . الفقه ، مبادىء العقيدة ، الحديث ، علم الكلام ، علم أصول الفقه ؛ هذه الأمور التي ندرسها اليوم في كلِّيَّات الشريعة ومعاهدها تسمَّىٰ « علوم الشريعة ») .

ثمَّ إنَّه برع في علم الحقيقة . ما هي الحقيقة ؟! .

الحقيقة هي الحالُ التي ينبغي أن تكون صافية في كيان الإنسان عن

---

(١) هي مقتطفات من شريط تسجيلي في شرح « الرسالة القشيرية » يلقيها فضيلته بعد عصر الجمعة من كلِّ أسبوع في جامع الرفاعي ـ حي ركن الدين ، ولذا فقد لا تجد سبكها متناسباً مع أدبه وفصاحته ؛ وقد اجتهدتُ بالمحافظة علىٰ لفظه ما أمكن بعد إذنه مشكوراً .

(٢) كان يقرِّر « الموطأ » للإمام مالك ؛ فاستبدل به « الرسالة القشيرية » .

الشوائب كلِّها ، وأن يكون الإنسان قد أسلم حاله هذه صافية من الشوائب لله عزَّ وجلَّ .

هذه هي الحقيقة ؛ يعني التعبير نفسه موجود في كتب الشريعة .

عندما يقولون (هذه الصلاة صحيحة شريعة ولكنها غير صحيحة ديانة . . . هذا العمل صحيح قضاءً وليس صحيحاً ديانة . .) ما معنىٰ صحيح (صحيح قضاءً وليس صحيحاً ديانة) ؟! .

يعني مثلاً يأتي القاضيَ رجلٌ طلَّق زوجته يقول له القاضي : ماذا قلت ؟ يقول : قلت (اذهبي إلى أهلكِ) . . والله ما قصدت الطلاق . فإذا حلَّفه وحلف يقول له (إذاً أنت ما طلَّقت) . ما طلَّق ديانة أو شرعاً ؟! هذا شرعاً ، لكنه إذا كان يكذب على القاضي ، وقصد بذلك الطلاق . . فالقاضي لا يمكن أن يحكم عليه بالطلاق ، ولكن ربَّ العالمين لا بدَّ أن يقاضيَه يوم القيامة ، وعلاقته مع زوجه سفاحٌ .

إذن . . فهناك في ميزان الشرع . . الظاهرُ الذي يتقاضىٰ الناس علىٰ أساسه ؛ ولا يملكون إلاّ الظاهر !! وميزان الباطن أي الذي يطَّلع عليه المولىٰ جلَّ جلاله .

فنحن لمَّا نتمسَّك بالدين . . لا يكفي أن نتمسَّكَ منه بظاهره الشرعي ، ولكن يبقىٰ بعده الباطن . . كيف كانت الصلاة ؟! كيف الخشوع فيها ؟! ما هو القصد للمصلِّي عندما جاء إلىٰ هذه الصلاة ؟! وما الذي دفعه إلىٰ ذلك ! .

الظاهرُ ممكنٌ تدبيره عن طريق حفظ الأركان والشروط، وقراءة كتب الفقه.

الباطن كيف ندبِّره ؟!! بحيث تكون صلاتي ليس فيها رياءٌ ، ما فيها عُجْب !! صلاتي فيها خشوع . . لمَّا أقرأُ الفاتحة أعرف مَن أخاطب ، وما الذي أقوله ؟!

هذه طريقة ثانية . . أن آخذ نفسي بمراقبة الله ، أن أذكر الله عزَّ وجلَّ

كثيراً ، أن أُنَمِّيَ محبَّة الله عزَّ وجلَّ بين جوانحي . . فهذه عملية متجهةٌ إلىٰ إصلاح باطن الدين ، بينما حفظ أركان الصلاة وشروطها هذه أمور تتَّجه إلىٰ ظواهر الدين .

إذن فلمَّا نقول (في الشريعة علم الظاهر وعلم الباطن . .) فالكلام سليم ، أو نعبِّر فنقول (علم الشريعة والحقيقة) .

لذلك كان لبُّ الدين إصلاحَ الأمور الباطنية ، أو إصلاح الأمور الحقيقية ؛ كما أنَّ صلاتك ينبغي أن تكون متفقة مع أركان الشرع الظاهرة . . ينبغي أن تكون متفقة مع ضوابط الصلاة الباطنة ، فهذه دون هذه لا تكفي ، والثانية دون الأولىٰ لا تكفي .

فالإمام أبو القاسم القشيريُّ كان واحداً من أبرز العلماء الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة يعني كان يعلم أحكام الشريعة ، ثمَّ كان بارعاً بالحقيقة ، أي كان يراقب باطنه ، وكان دائماً يجاهد نفسه لكي يزكِّيَها ، ولكي يبعدها عن عكر الصفات المرذولة التي يبغضها الله سبحانه وتعالىٰ .

والذي يجب أن نعلمه أنَّ التصوُّف الذي ضبط بضوابط الشرع هو لبُّ الدين ، والتصوُّف الذي لم يضبط بضوابط الشرع يُودِي إلىٰ الزندقة .

وخير مَن يقرأُ له لكي يجمع الإنسان بين هاتين الكِفَّتَيْن من دين الله عزَّ وجلَّ هو هذا الإمام القشيريُّ .

لذلك كان والدي رحمه الله كثير التعلُّق بهذا الكتاب شديد الحبِّ له .

تقديم أستاذنا الدكتور محمد عبد اللطيف صالح الفرفور

حفظه الله وأمتع بحياته

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ؛ فلمّا كان الإسلام هو الدينَ الحقَّ الذي اختاره الله لعباده ديناً قيِّماً ، وهو بعدُ دينُ الأنبياء والرُّسل الكرام وجوهر الرسالات السماوية وخلاصتها ، جعله الله سبحانه دوحة وارفة الظِّلال ، شهيَّة الأُكُل ، دانيةَ القُطُوف ، وجعل جلَّ شأنه جِذْعها الشريعة والأحكامَ والحلال والحرامَ ، وجُذُورَها العقيدة ؛ وهي الإيمان ، وأغصانها وأوراقها السلوكَ الموصلَ إلىٰ ملك الملوك ، وجعل ثمارها الإحسانَ : أن تعبد الله كأنك تراه ، وهو ثمرة المقامات والأحوال ، فإذا كانت الشرائعُ والأحكامُ المعبَّر عنها بحديث جبريل عليه السلام سمِّيت **بالإسلام** . . فإنَّ العقيدة سُمِّيَت **بالإيمان** ، وسُمِّي السلوك إلىٰ الله (فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك) مع ثمرته ؛ وهو (أن تعبد الله كأنك تراه) **بالإحسان** ، وهي شجرةٌ واحدة ، ودَوْحة سامقة أصلُها ثابت وفرعها في السماء .

وهكذا يكون الإحسان هو الثمرةَ المباركةَ لكلٍّ من الشريعة والعقيدة معاً ، وهو **سلوك وعرفان** ، وإن شئت قلتَ **طريقةٌ وحقيقةٌ** ، وإن شئت قلت **هدايةٌ واجتباءٌ** . . ولا مُشَاحَّةَ في الاصطلاح . . ولعل الأسماء والاصطلاحات جَنَت علىٰ الحقائق !! وإذا كان الناس اصطلحوا علىٰ تسمية من اشتغل وتخصَّص وفرَّغ نفسه للسلوك « صوفيّاً » ، وسُمِّيَ من اتبعه بالصوفية . . فإنِّي أفضِّل أن يسمَّىٰ هذا العِلمُ **سلوكاً** ؛ وثمرته **الربَّانيَّة** ؛ ويسمّىٰ أصحابُه في رحلتهم إلىٰ الله وسيرهم إليه **سالكين** ، فإذا وصلوا إلىٰ الحدِّ الأدنىٰ من المعرفة والتعريف سُمُّوا بـ « الربَّانيين » ، أخذاً من قوله تعالىٰ ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ .

وعلىٰ جميع الأحوال . . فالجوهر واحد ، وهو كما عرَّفه زرُّوقٌ في

« قواعده » : (صِدْق التوجُّه إلىٰ الله جلَّ وعلا بما يرضاه من حيث يرضاه) .
وتشمل الآيةُ الكريمة الفريقين : السالكين والربَّانيين معاً في سلك واحد ؛ ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ فالسلوك هداية ، والربَّانية اجتباء . . فليس كلُّ مَن سلك صار ربَّانياً ؛

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً بِلَيْلَىٰ وَلَيْلَىٰ لاَ تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

وإذا كان شرفُ صحبةِ للنبيِّ صلوات الله عليه وسلامه ، وشرفُ التابعين للصحابة بإحسان . . حَالَ دون وضع أسماء وتسميات لهذه العلوم لدىٰ أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية . . فإنّ الأمر لم يقف عند التسميات ؛ فلقد كتب أكابر العلماء والمحدِّثين ودوَّنوا مدوَّنات جليلة في علوم الحديث والتراجم والتفسير كان فيها علمُ السلوك جليّاً واضحاً مثل « الحِلْية » لأبي نُعيم ، وهو كتاب في السُّنَّة المشرَّفة ، ومثل « لطائف الإشارات » للقشيري .

وهذا السِّفر النفيس « الرسالة القشيرية » من أجلِّ هذه المدوَّنات وأعظمها ، وأكثرها سَيْرورةً وشهرةً وذِكْراً ، حتىٰ لا يكاد طالب علم يَشدو من العلوم بداياتها . . إلاَّ ويعرف هذا الكتاب ويقرأ فيه .

هذا ؛ ولقد اعتنىٰ العلماءُ بهذا السِّفر شرحاً واختصاراً وتحقيقاً وأَجَلُّ شروحه هذا الشرح الممزوج للإمام الربَّاني القاضي زكريا الأنصاري (الشافعي الصغير)، ففيه علوم ومعارف ، وأذواق وتراجم ، وفقه في الأحكام وفقه للأفهام ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ .

ولقد بقيتْ هذه الكنوز والذخائر والأعلاق مُخَبَّأَةً لا يعرفها إلاَّ العلماء ، حتىٰ قيَّض الله أخانا العالم العامل الأستاذ الشيخ عبد الجليل العطا وفَّقه الله ورعاه . . وهو بعدُ الصادق الوفيُّ ، ومن أعزِّ إخواني النُّجباء ، وممَّن تشرَّف فدرس علىٰ سيِّدنا الوالد وأخذ عنه في « الفتح الإسلامي » المبارك في عهده الزاهر الميمون عهد مؤسسه رضي الله عنه .

ليخرج لنا هذا الكنز الثمين الذي قَرَأه وقرأناه علىٰ شيخنا الوالد الربَّاني مرَّات بالمشافهة وهو بسنده إلىٰ المؤلف .

وقد نال هذا الكتاب الرائع حظَّه من العناية والتحقيق العلمي المتميِّز ما تفخر به المكتبة الإسلامية . . علىٰ أدب جمٍّ من المحقِّق الفاضل وتواضع هو بحقٍّ تواضع العلماء ، وإنِّي لأرىٰ فيه نجابةً تَرْفَعُه إلىٰ مَصَافِّ العلماء ، وطهارةً تَضَعُه في صفِّ السالكين ، وتواضعاً في غير ذلٍّ يرقىٰ به إلىٰ مرتبة الربَّانيِّين إن شاء الله ، وسينفع الله المسلمين بعلمه وفضله وأخلاقه . .

وَإِذَا رَأَيْتَ مِنَ ٱلهِلالِ بُدُوَّهُ أَيْقَنْتَ أَنْ سَيَكُونُ بَدْراً كَامِلا

فإلىٰ المنصفين من أهل العلم والسلوك . . **هديَّةَ تعرُّف** .

وإلىٰ الرَّبَّانيِّين من العلماء **هديَّة تشرُّف** .

وإلىٰ أولئك المعاندين المكابرين . . **بطاقةَ نُصحٍ وهداية** .

أما بعد ؛ فإني أختم هذا التقديم المتواضع لكتاب عظيم وشرح عظيم مع تحقيقٍ متميِّز لمحقِّقٍ فاضل وقلم معطاء لعبدٍ للجليل صاحبِ العطاء بقوله صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وصحبه . . وهو مسك الختام وختام المسك : « العِلْمُ عِلْمَانِ . . عِلْمٌ فِي ٱلقَلْبِ وَذٰلِكَ ٱلعِلْمُ ٱلنَّافِعُ ، وعِلْمٌ عَلىٰ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ حُجَّةُ ٱللهِ علىٰ ٱبنِ آدَمَ » .

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات .

وكتب

محمد عبد اللطيف صالح الفرفور

خادم العلم الشريف بدمشق الشام

مُقدِّمة هذه الطَّبعة

اَلحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى آله وصحبه حقَّ قدره ومقداره العظيم .

أما بعد ؛ فإنَّ « التصوف » كلمة كبيرة الدلالة بطيئة التداول ، مرتجلة الاشتقاق واضحة المراد . . تتلاقى عليها الأفكار وتختلف فيها الآراء ، بعيدة الغور قريبة المدلول . . . ولأن التصوف هكذا . . فقد كثر الاختلاف فيه .

ثمَّ إنّ التصوف علم وجداني . . يخضع لموازين علمية ، ويخرَّج عن أدلَّة استنباطية ، ولكنه ينساب من جداول القلب ؛ ويتفتَّقُ من مكامن الأفكار ، فما خَرَج عن الموازين يُرمى ويُطرح ، وما صحَّ فيه الاستدلال يؤخذ ويُلمَح ، فهو بين الإحساس والشعور ، وبين الحجَّة والبرهان ، كما أنَّه بين التجربة والتدليل ، وبين البحث والتحليل ، وبين التبنِّي والتسليم ؛ والتخصيص والتعميم ، ومع ذلك كلِّه يتراوح بين الإقناع والبرهان !! وبين يدي ذلك . . فالحكم عليه سهل ممتنع . . قريب بعيد ، جليٌّ خفي . فكيف السبيل للتعامل معه ؟!!

إذا كان كذلك . . فكثير يهاب أن يختلط فيه ، ويحذر التعامل مع أهله ! فيلزم جانب الحذر ويؤثر السلامة . . ولكن الأسلم أن **نتبيَّن الحقيقة من أهلها** ، فلا نُحرَمَ الخير إن وجد ، ولا نَقْفُ ما ليس لنا به علم !!

فلنعلم أن الواجب علمُه : ١ ـ أنَّ التصُّوف بقواعده وأسسه وأركانه إنما هو ـ كما ذكره زَرُّوق ـ عصارةُ العلوم بقواعدها المتفق عليها ، و٢ ـ أن أعلام التصوف حجة ـ كما سترى بعضهم في طيات هذا الكتاب ـ يحتجُّ بهم أهل العلم والعمل ، أو الصلاح والاستقامة ، و٣ـ أن علومهم ومعارفهم محطُّ إجماع أهل الحقّ ، و٤ـ أن ما يدعون إليه ويؤمنون به ـ كما قال الجنيد انظر

ص١٤٨ ؛ ١٥١ ـ مشيَّد بعلوم الكتاب والسنَّة ، و٥ـ أنَّ غاية أهله من هذا السلوك (أن تعبد الله كأنَّك تراه . .) .

إذا علمنا ذلك كلَّه . . علمنا أنَّ التصوُّف يعني الإحسان بأجلى معانيه ، ويعني المراقبة لله تعالى والخشية له ؛ بأرقى مظاهرها وأعمق مدلولاتها وأعزّ مفهومها .

ويعني أيضاً أنَّه السلوك الذي دعا إليه سيِّد المرسلين ﷺ إذ يقول : « وَٱللهِ ؛ إنِّي لأَتْقَاكُمْ للهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ . . . وَإنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَقُومُ وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ ٱلنِّسَاءَ !! فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

إذا كان هذا هو التصوُّف حقًّا !! فلِمَ إذن الاختلاف فيه ؟! وعلى مَ الحذر منه !!

إنَّ الجواب عن ذلك يتأثر بالمدى الذي يلتزم به الصوفية بتطبيق قواعدهم وإرشاداتهم ، ويتناسب طرداً وعكساً في التطابق بين التصوف والصوفية ، فمهما طابقت الأفعالُ الأقوال كان الجواب إيجاباً ، وإلا . . فلا .

ومع هذا فليس ذاك خاصَّاً بالصوفيِّين ، بل كلُّ فكر ومنهج ومسلك كذلك .

وإذا كان بين الصوفية مَن يتجاهل واجبه ووظيفته . . فإنَّ في المحاماة والطبِّ والهندسة والصيدلة وغيرها ثغراتٍ في بعض أهلها !! ثم لا يقول عاقل (إنَّ الواجب أن نرميَ أهل المهنة جميعاً عن قوس واحدة).

وربما تجدُ في الصوفية من يخالف قولُه فعله ، ومن ينأى عن واجبه جانبا ، فهذا من لوازم بشريته ؛ ولكنه مما اتفقت كلمتهم جميعا على نبذه ، وعند ذلك يتَّضح أنَّ ما أُلحق بالتصوُّف مما ليس منه مردود على أصحابه وملحقيه . وعندئذ سنعلم أيُّ واجب علينا نحو الحقِّ الذي جاؤوا به ، وأيُّ لزوم في تفنيد الباطل الذي التبس به . وعند ذاك سيكون التصوف ركنا من أركان الشريعة : الإيمان ، الإسلام ، الإحسان . . وسيكون له مدارسه

وأعلامه ومناهجه ، وسيُتَرَك فيه الجدل ويرتفع عنه الخصام ، ويقرُّه القاصي والداني . . نقيَّاً ، صافياً ، خالصاً ، سائغاً ، ضروريًا ، لازماً . . ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام : ١٦١] .

فهو الأخلاق ، وهو التربية ، وهو الأدب ، وهو السلوك ، ولا يخفى على أحدٍ ما أولى الإسلام هذه الجوانبَ من رعاية واهتمام !! ويكفي في معرض الإيجاز قولُه ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ ٱلأَخْلاَقِ » ! فقد أقرَّ ما كان في جاهلية قومه من أخلاق ومكارمَ ومُثَل ، ثم قصر بعثته الكريمة على إتمام ما نقص عن تلك المكارم ؛ وما فات من الأخلاق ؛ وبذلك تتمُّ سعادة المرء في دنياه وبين قومه ، أما سعادة آخرته فبرضا ربِّه جلَّ جلاله ، وبعبادته العبادةَ المثلى في مقام الإحسان الذي سما به أهل هذه الطريقة حتى كاد أن يكون حكراً عليهم ؛ معرَّفا بهم حيث عبدوه تعالى عبادةَ من يراقبه فلا يغفل عنه !

إذا كان كذلك . . فلم وقع هذا في الصوفية دون غيرهم ؟!

الجواب واضح ! لأنَّ الصوفيِّين دقيقو المحاسبة ، ذوقيُّو المعايير ، ليس سهلاً أن يَعِيَ الجاهل سرَّهم ، كما أنه ليس سهلا إدراكُ دقَّة موازينهم ، أو تحديد لطائف إشاراتهم ، وقد كان من سيرة رسول الله ﷺ ما يشهد لهذا ؛ حيث قال لأعرابيٍّ : « لَيْسَ هٰذَا لَكَ وَلاَ لِقَوْمِكَ » . . على أنَّ الحقَّ تعالى أرسله ﴿كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ !!!

فثمَّة صواب يجب علمُه ، وجهل تجب محاربته ، واعوجاج يجب تقويمه ، وسلوك يجبُّ اتباعه ، فإن زاغ مستقيم فالحجَّة عليه هاجمة ، وإن استقام معوجٌّ فالحجَّة به قائمة ، وإن رَشَد ضالٌّ قُبل ، وإن ضلَّ راشد أُعيد ؛ أو طُرد ، وليس في غير الإسلام هداية ، ولا لغير الاستقامة قبول ، و« الحقُّ أحقُّ أن يتَّبع » ، و« للباطل جولة ؛ ثمَّ يضمحلُّ » ، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ .

هذه هي الأسباب التي حَمَلتْ على تصنيف هذه « الرسالة » ، وهي ذاتُها العوامل التي أحاطت بشرحها .

وهي عينها الحوافز التي أسهمت في نشر هذا الكتاب بمتنه وشرحه .

ولن يضير آنئذ أن يُعرَف اشتقاق لفظة « التصوف » أو أن يجهل .

ثم ليكن الواجبُ عليَّ أن أوجز في التقديم . . لأسلك معك إلى ثنايا هذا الكتاب الذي يمثل التصوف ونماذج من أهله ، فدونك ما تقرُّ به عينك إن شاء الله تعالى !!

مع وافر الشكر وواسع الترحيب بما تجود به أفكارك المنصفة من ملاحظات سديدة وتقويمات رشيدة . والله ولي التوفيق .

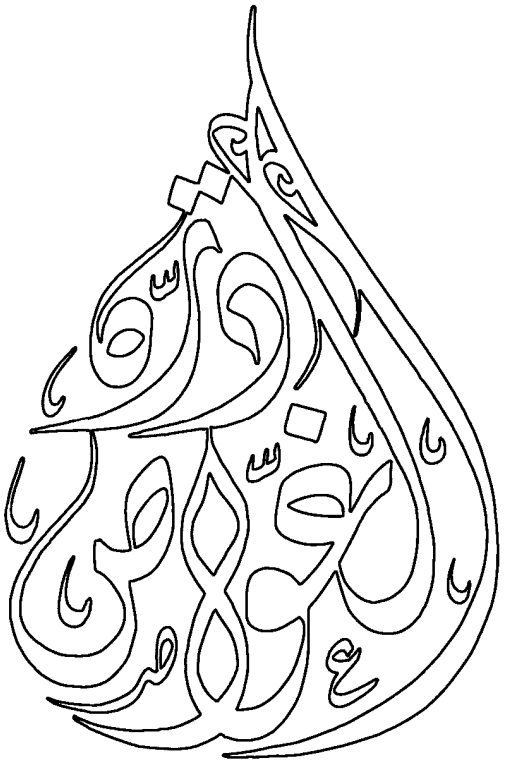

التعريف بالكتاب
والحاجة إلى نشره

أمسكتُ بالقلم لأعرِّف القارىء بـ« الرسالة » التي أطبعُ وأحقِّق . . فتضاءلتُ في نفسي وصغرت ، ثم أحسست بفتور في أناملي فبَهَت سواد مدادي ، وذلك حينما أدركت أنَّ ما أعرِّف به إنما هو الشمس في رابعة النهار ؛ أو دليل الساري بين الأقمار !؟ .

وكيف أعرِّف برسالة هي حين الإطلاق « الرسالة » !؟ وعنوانها تضيق به المقالة ؟

أدركت ذلك كلَّه بلمحات يسيرة بعد أن أمضيت في صحبتها شهوراً كثيرة ، وأنَّىٰ أقدِّم بأسطر قليلة لأدلَّ على مجامع من الخير وفيرة !! لأن هذه « الرسالة » قد بيَّنت الصحيح من عقائد أهل الحقِّ ، والجليل من مسائل التوحيد ، كما بيَّنت المشتبهَ من مسائل الأصول ، واستدلَّت بما قرَّره الرجال الفحول ، إضافة إلى التعريف بما يزيد عن ثمانين من أئمة الهدى ونجوم الاهتدا ؛ فضلا عن نيِّف وخمسين مصطلحاً من دقائق العلوم والفهوم ، وأكثر من أربعين باباً تربوياً ومسلكيًّا من أهم مجالي الإيمان وملامح الفضيلة والخير .

ثم لم يَفُتْ المؤلف رحمه الله أن يبيِّن أحوال أهل الهداية والرشاد ؛ أئمة السلوك للسداد . . في سفرهم وحضرهم ، وحياتهم وعند لقاء ربِّهم .

كما يبيِّن بعمق وإدراك معانيَ ما خفي ودقَّ من المباحث الذوقية والوجدانية كالمعرفة لله تعالى ، والمحبة والشوق والرضا وسواها . .

وقبل أن يختم رسالته أكَّد لزوم حرمة أهل الكرامة ، وعدم الخروج عن رأيهم ، مع بيان ما أكرمهم الله به واختصَّهم عمن عداهم ، معرِّجا على ما بقي

من مجالي النبوة في الرؤيا الصالحة ، خاتماً ذلك بما يجب على المريدين العملُ به وحفظه وتنفيذ ما يوصيهم به .

هكذا أراد مؤلف هذه « الرسالة » أن يعلِّقها ويرسلها إلى الصوفية في الآفاق ليصحِّح بها خطأً ، ويسدِّد بها خُطَاً ، ويرسم منهاجاً ، ويقوِّم أعوجاجا ، ويحدَّ حدوداً ، ويبيِّن مقصوداً ، ويوضِّح ظاهراً ، ويجلِّي واضحاً .

هكذا تراءت لي هذه « الرسالة » حين أردتُ التعريف بها فاستحييت واسترهبت ، ثم أحجمتُ حينما تماثل لي أن نُدْرة يسيرة لا يعرفون « القشيرية » ، ولكن القليل هم أولئك الذين يعرفون هذا العمل الذي أقدِّمه . . ألا وهو :

إحكام الدلالة على تحرير الرسالة

وهو أحد الأَعمال العلمية النفيسة التي حظيت بها «رسالة الإمام القشيري » جاد بها القاضي الجليل شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الذي بيَّن بإحكام ودقَّةِ المعانيَ الجليلة التي انطلت عليها « الرسالة » ، ولم يكن مجرَّدَ شرح لغوي مبتذل ، ولا تفسيراً إشارياً عميقا ، أو عرضا مخلاً ؛ وتكراراً مملاً . . . ولكنه سلك مهيعاً قويما ، فشرح بالمزج والتضمين جاعلاً المتن والشرح بنسق واحد بحيث يقرءآن ممزوجين بعبارة واحدة ؛ مُتبِعا كلَّ فقرة من فقرات المؤلف غالباً بموجزِ ما تدلُّ عليه ؛ قائلا (فيه دلالة . . .) ، وقد استوفى رحمه الله ما بدأ به فأَتمَّه بطريقة واضحة متَّحدة حتى جعل « الرسالة » في أقرب تناول ؛ بيسرِ فهم واستيعابِ معنىً . . بلسانٍ عقائدي فقهي ذوقي ، ويراعِ قاضٍ مربٍّ صوفي معتدل .

وإذا كانت شهرة « الرسالة القشيرية » ؛ وتبنِّي أهل هذا الفنِّ لها . . يغنينا عن مزيد من التعريف ، وهي أثر من أبرز تصانيف الصوفية ، وقد زادها جلاءً وعظمة وترقّياً شرحُ الشيخ زكريا الأنصاري للوهلة الأولى ـ نظراً لشهرة